

3 - 2 لم يرد تصريح بأسماء الرجال سوى اسم الخليفة واسم إبراهيم بن سيار النظام. ولقد جاء هارون الرشيد ليكون بمثابة الشاهد الواقعي والشاهد التاريخي على الحكاية، مما يؤسس لها ظرفاً واقعياً، ويعطيها قيمة اجتماعية، وتكون بذلك حادثة تاريخية بناء على مرجعيتها الظرفية المتمثلة بالخليفة وبمجلسه، وبالرجل المعاصر له فعلاً وهو النظام. وتظهر مناظرة تودد للرجال لا على أنها حدثاً وإنما هي واقعة مسجلة في ديوان الخلافة، وهنا تحفر الحكاية لنفسها موقعاً في تاريخ الحضارة، وتكون تعرية الرجال مشهداً تاريخياً أمعن الساردة في تكثيفه زمانياً بروايته على مدى أربع وثمانين ليلة، وأمعن في السخرية من جنس الرجال بتعريتهم على مشهد من سلطان الزمان وفي مجلسه. وهذه هي الوظيفة السردية لشخصية هارون الرشيد الشاهد على ما جرى وكان.

أما النظام فقد جاء بوصفه رمزاً لثقافة العقل والكلام، وحسب رأي الجاحظ الذي قال عن أستاذه النظام إن (الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك)⁽¹⁰⁾. وهو رجل سمي بالنظام لإجادته نظم الكلام.

هذا الرمز الفحل الذي هو رجل الألف عام وسيد الكلام، هذا الذي لا نظير له، يرميه الله بجارية لا نظير لها أيضاً. وهنا تقع الواقعة بين اللانظيرين بين ثقافة الفحل وجسد الجارية، ويتقدم النظام متجهاً نحو تودد بعد أن هزمت وعرت ستة رجال على مرأى ومسمع من النظام، يتقدم النظام نحو الفتاة ويجري بينهما الحوار التالي:

النظام: لا تحسبيني كغيري.

تودد: الأصح عندي أنك مغلوب لأنك مدع، والله ينصرني عليك حتى أجردك من ثيابك فلو أرسلت من يأتيك بشيء تلبسه لكان خيراً لك.

(10) خير الدين الزركلي: الأعلام 1/36، من نشر المؤلف، بيروت 1969.